

تعليقاتك و متافساتك

تعليق على بحث المستعمرات اللاتينية في فلسطين

للدكتور عبد المحيى الطياري

مقالة الدكتور علي محافظة عن هذا الموضوع في العدد المزدوج (السنة الثالثة) ص ٤٦ ، وما يليها ، تستحق الدرس وهو يستحق الثناء لكتابتها ، فهي تكاد تكون الوحيدة التي تناولت الموضوع من اللغة العربية . وقد راجعتها على ضوء ما كتبتُه عن تلك المستعمرات في مؤلفاتي باللغة الانكليزية ، ووضعتُ في انشاء المراجعة ملاحظات على هوامش الصفحات ، اذكر بعضها فيما يلي :

جاء في الفقرة الاولى من المقالة ان من اغراض كاتبها معالجة « الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات » . فاستوقفني ذلك لعلمي ان انشاءها كان دافعاً دينياً محضاً ، ولم يزلُ استغرابي إلا بعد اكمال قراءة المقالة ، فلم اجد فيها بحثاً لدوافع سياسية او اقتصادية .

وكذلك استغربت مقدمة في نحو اربع صفحات ، مستبدة من مصادر ثانوية ، تشير الى بعض المشاريع لإعادة اليهود الى فلسطين ، إذ لم ار لهذا من صلة مباشرة مع رغبة طائفة نصرانية المانيصة في الهجرة الى فلسطين انتظاراً لعودة السيد المسيح . ولكني حققتُ ما ذكره الكاتب عن تأسيس القنصلية البريطانية في القدس سنة ١٨٣٨ ، وخلاصة قوله ان وزارة الخارجية امرت القنصل « ببسط حمايته على كاتبة

اليهود المقيمين في فلسطين « . وسبب التحقيق ان الكاتب نسب ذلك إليّ
اعتمادا على الصفحة ٣٣ من كتابي باللغة الانكليزية « المصالح البريطانية
في فلسطين : ١٨٠٠ - ١٩٠١ » (١) . ولكن نص الأمر الذي اثبتته
بحروفه لا ينطبق على ما نسبه الكاتب إليّ ، فلا ذكر في النص لقوله :
« كرامة اليهود المقيمين في فلسطين » . أما قوله « بسط حمايته » فهو
أقوى بكثير من الأصل الانكليزي الذي معناه « تسهيل الحصول على
الحماية » "to afford protection"

أما مقدمة المقالة التي لها في رأي صلة مباشرة بموضوعها فتبدأ
بمد ذلك عند ذكر اقتراح قون مؤلتي في سنة ١٨٤١ إقامة دولة
نصرانية في فلسطين تحت رئاسة أمير ألماني . ومرة أخرى نسب الكاتب
إليّ ما لم أقم عليه على الصفحتين ٤٤ - ٤٥ من كتابي المذكور . فلم
أقبل ان قُورِك وليسم الرابع ملك بروسيا وافق او لم يوافق على
اقتراح مؤلتي . والذي قلته ان الملك اراد ، لأسباب دينية محضة ،
انشاء أشقوية بروسية - بريطانية في القدس . وقد امكن اكتشاف
هذين المثلين على طريقة الكاتب في النقل لسهولة مقابلة المنقول مع
الأصل في مكتبي . لكنه لا يسمح الاستنتاج ان ذلك ينطبق على المصادر
الأخرى التي لا تسهل مقابلة ما نقله الكاتب عنها مع اصله . وكل ما
يصح استنتاجه ان المقالة مفيدة .

معظم مادة المقالة مأخوذ عن : ١ - كتاب بالالمانية عنوانه
« تاريخ المستعمرات الالمانية في فلسطين » لمؤلفه هانس بروغر ، جاء
ذكره في العوامش أكثر من عشرين مرة . وعن ٢ - كتاب آخر بالالمانية
عنوانه « تاريخ حيفا في العهد العثماني » ، ومقالتين بالانكليزية عن

(1) British Interests in Palestine : 1800-1901 (Oxford, 1961), P.33;

المستعمرات الألمانية ، لمؤلف اسرائيلي اسمه ألكس كاريل ، وجاء ذكر مؤلفاته في الهوامش أيضا اكثر من عشرين مرة . وهناك مصدر ثالث وهو السجلات الألمانية الرسمية التي جاء ذكرها في الهوامش نحو عشر مرات . ولكن المأخوذ عنها قليل في كميته واهميته .

ولعمل اعتماد كاتب المقالة اعتماداً كبيراً على كاريل ، ونقله عن مؤلفين اسرائيليين آخرين ، دون نقدٍ لما نُقِلَ ، جعل الصورة النهائية للمستعمرات الألمانية غير كاملة ؛ وأذكر مثلاً واحداً على ذلك : وهو خُطُو المقالة من ذكر فضل المستعمرين الألمان على المستعمرين اليهود في الزراعة . فقد حاول بعض اليهود إقامة أول مستعمرة في بِقَاحٍ تَقْفَا فآخفقوا ، ثم حاولوا ذلك بعد بضع سنوات فنجحوا ، فكسان بعض الفضل في نجاحهم عائداً الى الألمان الذين علموا اليهود كيفية ري الأرض في مساء نهر العوجا بواسطة المضخات . وهذا وغيره مذكور في كتابي باللغة الانكليزية « العلاقات البريطانية - العربية ومسألة فلسطين : ١٩١٤ - ١٩٢١ » (٢) .

بعد هذا لا بُدَّ من سؤالين بشأن هوامش المقالة : الاول يتعلق بالهامش رقم (٩) الذي ورد فيه لأول مرة ذكر كتاب بالالمانية عنوانه « تاريخ الكنيسة الانجيلية وبعثاتها التبشيرية في فلسطين » . ومع ان هذا الكتاب يَرد ذكره مراراً بعد ذلك في الهوامش ، فانه لا ذكر لمؤلفه (او محرره او ناشره) او مكان طبعه او سنة الطبع . والسؤال الثاني هو عن مصير الهوامش ٣٠ - ٣٩ ، فأرقامها موجودة في نس المقاله ، ولكن الهوامش العشرة نفسها ضائعة . فمساءلة القارئ .

(٢) Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine : 1914-1921 (Luzac, London, 1977), PP. 16-17; 26-27

تبدأ المقالة بذكر « جمعية الهيكل » الألمانية التي اعتقد أفرادها بقرب عودة السيد المسيح ، فأرادوا الهجرة إلى فلسطين واتخاذها وطناً لهم انتظاراً لتلك العودة . ولدت الكاتب ربط هذه الحركة الألمانية بنظائرها في العالم البروتستانتي ، وخاصة في انكلترا وأمريكا . فقد سبقت طائفة أمريكية غيرها من الطوائف التي اعتقدت بقرب عودة السيد المسيح ، فهاجرت إلى فلسطين وأقامت في ضاحيه من ضواحي يافا عُرفت عند العرب منذ ذلك الوقت « بالملكان » تحريفاً عن « الأمريكان » . ولكن الأمريكان لم يَبْتُوا ، واضطروا لأسباب مختلفة إلى بيع بيوتهم الخشبية التي جلبوها معهم إلى الألمان الذين استقروا في سنة ١٨٦٨ في أول مستعمرة لهم عند أسفل سفح جبل الكرمل في حيفا . فصارت الملكان ثاني مستعمرة المانية بعد حيفا .

واسهب كاتب المقالة في بحث الاختلافات الدينية بين « جمعية الهيكل » والكنيسة الألمانية ، كما اسهب في بحث الاختلافات بين زعيمي الجمعية ، حتى أنه لخص في عدد من الصفحات محتويات كتبهما ، وترجم لكل منهما ترجمة طويلة فبلغ مجموع الترجمتين بحروف صغيرة ثلاثة وعشرين سطراً . وراي أن الاسهاب في كل ذلك غير ضروري للبحث الأساسي ، ونشأ عنه شيء من قلّة التوازن في المقالة ، فما جاء فيها عن المستعمرات قليل بالنسبة إلى ما جاء عن المواضيع الجديّة والاستطرادات الكثيرة . فاذا استثنينا ذلك واتفقنا على المسادة الأساسية ، فهذه بعض الملاحظات عليها :

١ - ص ٦٢ : يقول الكاتب ان مستعمرة « سارونا » أسست سنة ١٨٧١ « على طريق يافا - تل أبيب » . وهذا لا يصح تاريخياً ، لأنّ تل أبيب لم يكن لها وجود قبل سنة ١٩٠٦ .

٢ - ص ٦٤ : ويقول الكاتب إن مستعمرة « وَاهِلَسْلا » أُسِّمَتْ سنة ١٨٩٢ « على طريق يانسا - نل ايبب » وهذا بِمِثْلِ سَابِقِهِ لَا يَصِحُّ تَارِيخِيًّا .

٣ - ص ٦٤ : يقول الكاتب ان مستعمرة « وِلِهْلِمَسَا » تقع الى الشمال الشرقي من اللّسد . والناظر الى الضارطة يرى انها واقعة الى الشمال من اللّسد . ولا يقول الكاتب ان هذه المستعمرة أُسِّمَتْ تخليداً لزيارة الامبراطور الألماني غليوم الثاني لفلسطين في سنة ١٨٩٨ . والكاتب يذكر هذا الامبراطور وكذلك الملك فريدريك وليسم وغيرها بأسمائهم الألمانية . وهذا مشوّش للتاريخ العربي الذي لا يعرف اللغة الألمانية . فالامبراطور معروف عند العرب في كتبهم ومدارسهم باسم « غليوم الثاني » ، كما هو معروف عند الانكليز بالامبراطور أو القيصر وليسم الثاني . ولا يتولون عنسه وِلِهْلِمَسَا ابداً .

٤ - ص ٨٣ : والكاتب مخطيء بقوله إن الامبراطور غليوم الثاني زار فلسطين على ظهر بارجة من البوارج الألمانية . فالحقيقة انه جاء مع الامبراطورة وحاشيتهما على ظهر اليخّت الامبراطوري « هُوَهْنزُولِرِن » تحرسهم البوارج الألمانية والعمانية . وتتمسك ذلك موجود في كتابي باللغة الانكليزية بعنوان « تاريخ سورية الحديث مشتتلا على لبنان وفلسطين » . وفي هذا الكتاب ان الامبراطور وكّسل الى شركة كوك البريطانية تدبير جميع مسا احتياجاته الرحلة برّاً من حيفا الى يانسا فالرحلة نالت قدراً من رخيّم وامرّة واثاث ومطابخ وخدم . وكان الغرض الأول من زيارة الامبراطور تدشين الكنيسة الألمانية الجديدة التي بُنِيَتْ بقرب كنيسة القيامة ، ولكنه زار الأماكن العديدة قبل مغادرته

المدينة مع الامبراطورة والحاشية بقطار خاص الى يافا حيث كان
البيحت الامبراطوري في الانتظار (٣) .

٥ - ص ٨٥ : لم يذكر الكاتب ان الامبراطورة اُوغُستَه فِكْتوريا كانت
مع زوجها الامبراطور غليوم ، ولكنه ذكر البناء المليم الذي
أقيم فيما بعد في القدس تخليداً لاسم الامبراطوره . واهل
القدس يعرفون هذا البناء المشهور على جبل الزيتون ، فهو
بشبه قلعة من قلاع منطقة نهر الرّايين . وقد تم بناؤه قبيل الحرب
العالمية الاولى ، وصار داراً للحكومة في اول عهد الانتداب
البريطاني ، ووضع الكاتب اسم هذا البناء كاملاً باللغة الالمانية ،
ولكنه اخلاً في تهجئة الاسم الثاني للامبراطورة ، فهذا يُكْتَب
بحرف "K" لا بحرف "C" كما هو في الانكليزية .

ومناسك اغلاط في الألمانية والفرنسية والانكليزية في نص المقالة
وفي هوامشها ، بعضها مطبعي وبعضها غير ذلك كما يتضح من الامثلة
التالية :

١ - ص ٥١ : في نص المقالة هاتان الكلمتان (Hof prediger)
وترجمهما الكاتب « بقسيس البلاط » . ولكنهما في الألمانية كلمة
واحدة وتكتبان معاً كلمة واحدة .

٢ - ص ٦٦ : ذكر الكاتب ان سعر الهكتار الواحد من ارض مستعمرة
« سارونا » كان « مئة غولد Guld » . والصحيح ان
تكون غولدين Gulden :

(3) A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine
(Macmillan, London, 1969), PP. 188 - 194

٣ - ص ٦٨ : في نص المقالة هاتان الكلمتان تبدأ كل منهما بحرف كبير (Kolonisations Kasse) وترجمتهما الكاتب « بسندوق

الاستعمار » . ولكنهما في الألمانية كلمة واحدة وتكتبان معاً كلمة واحدة .

٤ - ص ٧١ : ذكر الكاتب في النص « الحزب الوطني الحرس » وكتب اسمه بالألمانية هكذا : (Der Nationalliberden Partei) وأداة التعريف هنا خطأ والواجب ان تكون Die . لهذا الكلمة الاولى بعدها فلا معنى لها بهذه التهجئة ، والمغالب ان الكاتب أراد ان يكتب : Nationaliberate

٥ - ص ٧٨ : ترجم الكاتب اللقب الألماني "Graf" بكلمة « أمير » . وهذا لا يصح ، فأمر معناها بالألمانية Prinz فاذا كان لا بد من الترجمة فكلمة نبيل تربية من الأصل الألماني . لكن ما المانع من كتابة « غراف فلان » كما نكتب « لورد فلان » ؟

٦ - ص ٨٠ : جاء في نص المقالة هاتان الكلمتان التردسيتان (واد منها تبدأ بحرف كبير) : Penetration Pacifique وترجمهما الكاتب « بالغزو الاقتصادي » وهذا خطأ ، فمعناها « التغلغل الهاديء أو السلبي » . وكان الواجب ان تكتب الكلمة الاولى هكذا : penetration ولا حاجة لحرف كبير في اول كل من الكلمتين .

وفي الختام لا بد من ملاحظة بشأن استعمال كلمة « الاستعمار مقابل (colonisation) ، وكلمة « المستعمرين » مقابل (colonists) ، وكلمة مستعمرة مقابل (Colony)

نقد امتداد العرب في فلسطين منذ أكثر من نصف قرن استعمال هذه
الإصطلاحات منذ ذكر الألمان أو اليهود . ولا سبب لتغيير هذا الاصطلاح
المألوف ، واصطناع ما أوجته الدعاية الاسرائيلية لمن يكتبون بالعربية
تحت إرشادها داخل اسرائيل ، فهؤلاء هم الذين أدخلوا كلمات
« الاستيطان » و « المستوطنين » و « المستوطنة » . ولا يخفى ما بين
المألوف والدخيل من فرق في المعنى والمغزى . وقد استعمل كاتب
المقالة المألوف من هذه الاصطلاحات أكثر من استعماله الدخيل ، ولا
شك أن استعماله الدخيل كان دون وعى ، شأنه في ذلك شأن كثير من
كتاب العرب المحدثين .